حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٨ (عدد إبريل – يونيه ٢٠٢٠)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)

التحول في مخطط البيت من الدائري إلي المستطيل في العصر الحجري الحديث في منطقة أعالي بلاد الرافدين

د. جمعة حريز الطلبي*

جامعة بغداد / كلية الآداب / قسم الآثار

المستخلص

تعد العمارة أحد السمات المميزة لمنطقة أعالي بلاد الرافدين، وفيها ظهرت أشكال عديدة لتصميم البيت حددتها حاجة الإنسان ونوعية المواد الأولية المتوفرة في إطاره البيئي. فقد ظهرت أقدم البيوت السكنية في هذه المنطقة، وقدمت ما يمكن أن يكون نواة البيت في عموم منطقة الشرق الأدنى. كانت هذه العمارة تتألف من أشكال بدائية في تصميمها وتقنية بناءها، تتكون في الغالب من غرفة دائرية تقريباً فيها فتحة صغيرة تمثل المدخل. ومع الدخول إلى العصر الحجري الحديث في حدود الألف التاسع ق.م، تطورت العمارة نوعاً ما عن أسلافها وإن حافظت على مخططها الدائري أو البيضوي، وأصبحت البيوت السكنية في هذه المرحلة أكثر سعة وتنظيماً، وقسمت من الداخل. ثم حدثت في منتصف هذا العصر ثورة معمارية كبيرة تمثلت بالتحول نحو البناء المستقيم، فقد ظهرت بيوت مستطيلة ومربعة بزوايا قائمة.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢٠.

مقدمة البحث :

شهدت منطقة أعالي بلاد الرافدين، التي تضم شمال العراق وجزء من منطقة جنوب شرق تركيا وشمال شرق سوريا(الخارطة :١)، تحولات مهمة على طريق التطور الحضاري، فقد تواجد الإنسان فيها منذ أقدم العصور الحجرية القديمة، وظهرت آثاره متمثلة بالأدوات الحجرية في الكثير من بقاع هذه المنطقة، وخاصة في الكهوف والملاجئ الصخرية. لقد ظل الإنسان طوال هذه العصور يعيش حياة بدائية، يعتمد على جمع القوت بالصيد والالتقاط، ثم بدأ ينتقل في أواخر تلك العصور إلى طور جديد من الحياة، تبدلت فيه أساليب عيشه تبدلاً جوهرياً، إذ أصبح منتجاً لقوته من خلال ممارسة الزراعة وتدجين الحيوانات، أدى هذا بدوره إلى حدوث الانقلاب الاقتصادي الذي اتضحت معالمه في العصر الحجري الحديث، وظهرت بوادره الأولى في هذه المنطقة، مروراً بحوض الفرات وحتى وادي الأردن [1].

بشكل عام حصلت تغييرات كبيرة في تركيبة المجتمعات في العصر الحجري الحديث(من نحو٩٠٠٠-٥٠٠٠ ق.م)، فقد ظهرت المجتمعات المستقرة ورافقتها تطورات اجتماعية واقتصادية، كما حصلت فيها زيادة تدريجية في حجم المستوطنات وكثافة الاستيطان، وشكل التنوع المعماري أحد الأدلة عن هذا التغيير [2]. فقد كان هناك تحولاً تدريجياً حصل خلال قرون وأجيال رافقته زيادة حقيقية في الاستيطان وفي حجم المستوطنات في مطلع العصر الحجري الحديث ، إذ امتد الاستيطان إلى مناطق لم تسكن سابقاً وتأسست مستوطنات جديدة في مناطق تتوفر فيها مصادر المياه مثل الأهوار وحافات البحيرات وضفاف الأنهار مع امكانية زراعة محاصيل نباتية اعتماداً على مياه الأمطار، و ظهرت كذلك مستوطنات يمكن وصفها بالقرى في جميع مناطق الشرق الأدنى تقريباً من ضمنها منطقة أعالي بلاد وادي الرافدين، وفيها أسس الصيادون وجامعو القوت أول القرى في مناطق تتميز بموارد طبيعية متنوعة [3]. عاش السكان في بيوت دائرية أو بيضوية تحد مناطق مفتوحة في المستوطن مع وجود مناطق ذات وظائف متخصصة، فضلاً عن وجود أدلة عن مجموعة نشاطات عامة، ربما قامت بها مجموعات بشرية اقامت لمدة طويلة في المستوطن، أو ربما بشكل دائمي كما في موقعي نمريك وقرمز درة في شمال العراق. ليس هناك أدلة عن تنظيم اجتماعي أو تفاوت طبقي بين سكان المستوطنات [4]. وربما بقي الإنسان في هذه المرحلة يستخدم الكهوف القريبة، فالبقايا الأثرية التي كشفت في الطبقة ب من كهف شانيدار كانت تشابه نظيراتها في المواقع المفتوحة، ربما يفسر هذا ؛ أن هذا الكهف كان ملجأ شتوياً للسكان الذين عاشوا في مواقع مفتوحة قريبة مثل موقع زاوي جمة، أو حتى أنه كان يستعمل صيفاً وشتاءً إلى جانب المواقع المفتوحة[5]. يمكن القول أن الاستيطان في المراحل الأولى من العصر الحجري الحديث كان محدوداً وبسيطاً اقترن بالكهوف والملاجئ الطبيعة ومن ثم أقترب نحو المناطق السهلية القريبة فتأسست مستوطنات صغيرة موسمية في الغالب من قبل مجموعات صغيرة لا تتجاوز بضعة عشرات عاشوا في بيوت دائرية صغيرة حجرية القسم الأكبر منها غالباً ما كان غائراً في الأرض، اعتمدوا في عيشهم على الصيد والجمع، مع وجود أدلة محدودة جداً عن تدجين بعض الحيوانات مثل الخراف والماعز كما في مواقع شمال العراق. ظهرت في عمارة المباني السكنية في هذا العصر أشكالاً عديدة لتصميم البيت حددتها حاجة الإنسان القديم للسكن ونوعية المواد الأولية المتوفرة في البيئة، التي تم استخدامها في إنشاء بيوته، فضلاً مرونة الحرفيين الذين قاموا بعملية البناء في معالجة هذه المواد.

البيوت السكنية ذات المخطط الدائري

تعد العمارة ذات المخطط الدائري الشكل الأقدم من أشكال العمارة في منطقة أعالي بلاد الرافدين، وتقع جذورها في العصر الوسيط (الانتقالي) السابق للعصر الحجري الحديث، واستمر ظهورها في مختلف أدوار العصر الحجري الحديث، وكانت بأشكال وتصاميم مختلفة حددتها الحاجة والمواد الأولية التي بنيت منها، كما أشرنا في أعلاه[6]. يعزو بعض الباحثين ظهور التصميم الدائري للمباني بأنه عندما خرج الإنسان من الكهوف والملاجئ وأراد الاستقرار في السهول والمناطق المفتوحة في منزل خاص به وقف في منطقة ما ورصف الأحجار حوله وبنى كوخاً حجرياً من الداخل، فأصبح بيته مدور الشكل، ويعزز هذا الرأي اكتشاف البيوت المدورة في المراحل الأولى في مناطق يتوفر فيها الحجر مثل منطقة أعالي بلاد الرافدين[7]. بينما يعتقد باحثون آخرون أن (البيت الأصلي) كان في البداية عبارة عن حفرة بسيطة، عمل الإنسان على جعلها دائرية الشكل، وأن البيوت الدائرية (أو البيضوية) شبه المجوفة تمثل النوع الأول من البيوت التي ظهرت في هذه المنطقة وعموم الشرق الأدنى. وقد يكون لشكل منازل الإنسان الدائرية الأولى ذات الأسس والقيعان الدائرية علاقة ما، من قريب أو بعيد، بشكل أرضية خيام الجلود التي احتمى بها الإنسان الصياد في حالة المناخ المعتدل في أواخر العصر الحجري القديم وما تلاه في بقاع مختلفة من العالم ومنها منطقة الشرق الأدنى[8]. وهناك من الباحثين من يرى أن الشكل الدائري يرتبط بشكل واضح بالمجتمعات الرعوية أو شبه الرعوية، بينما الشكل المستطيل يرتبط بفلاحي القرى كاملة الاستقرار كما سنوضح ذلك في ثنايا البحث. عموماً يرتبط البيت الدائري بالأسر الصغيرة التي تضم الأب والأم والأولاد [9].

يبدو أن قضية أصل البيت الدائري لا تزال قضية غير معروفة على وجه الدقة، فعلى سبيل المثال في شمال العراق فإن الثغرة الزمنية الواقعة بين مخلفات مواقع كريم شهر وزاوي جمة وملفعات من أواخر العصر الحجري الوسيط (من نحو ١١٠٠٠ ق.م) وبين مخلفات مواقع العصر الحجري الحديث الفخاري (الألف السادس ق.م) مثل أم الدباغية وحسونة ويارم تبة كانت مدتها طويلة، لذا يتعذر البث في أصل هذه الأشكال بصورة قاطعة. كما أن عدم ظهور بيوت دائرية الشكل في مواقع جرمو وتل شمشارة ومطارة في شمال العراق، التي تعود جميعها إلى مطلع العصر الحجري الحديث الفخاري يزيد من صعوبة هذه المشكلة أيضاً [10]. هنا نود أن نشير إلى رأي العلماء الروس الذين عملوا في منطقة سنجار في شمال العراق وتحديداً في موقع يارم تبة، الذين أكدوا فيه على أن التكرار النسبي لهذا النوع من البيوت في أقدم الطبقات هو استمرار للانتشار الواسع لتقاليد الشرق الأدنى القديم، التي يرجع أصلها إلى المرحلة التي انتقل فيها البدو الرحل من الملاجئ المشيدة بالخشب والأغصان إلى بناء المساكن المستقرة. لكن الذي يضعف هذا الرأي هو عدم العثور على أية مخلفات تشير إلى وجود بيوت شيدت من الخشب والأغصان في عموم الشرق الأدنى. لذا يمكن القول أن تكرار هذا النوع من البيوت الدائرية في موقع يارم تبة١ هو استمرار للبيوت المشيدة من الحجر والطين من عصور أقدم [11]. هناك من الباحثين من يعتقد أن البيوت الدائرية التي ظهرت في مواقع العصر الحجري الحديث الفخاري مثل أم الدباغية وحسونة ويارم تبة١ لم يكن أصلها المرتفعات العراقية، إذ ربما كان منشأ ظهورها المرتفعات الجبلية في جنوب شرق تركيا وتحديداً في منطقة ديار بكر. فقد عثر في موقع ترلو على بيوت شيدت تماماً بالطريقة نفسها التي شيدت فيها البيوت الدائرية في موقع

الأربجية في شمال العراق، كما عثر في داخلها على تنانير ومواقد تشير إلى استخدامها للسكن، وقد زودت أغلب هذه البيوت بغرفة مدخل مستطيلة الشكل، كما كشف في بعض المواقع عن أفران تشبه البيوت المدورة من ناحية الشكل[12]. إن انتشار حضارة حلف في منطقة واسعة يجعلنا نشك في موطنها الأصلي، ولكن إذا ما أخذنا التطور المعماري في الحسبان لرأينا أن ظهور البيوت الدائرية في عصر ما قبل حسونة كما في الطبقتين السفليتين من موقع أم الدباغية ومن عصر حسونة كما في الطبقتين السابعة والثامنة في موقع تل يارم تبة١، فإن هذا يدعم فرضية كون الموطن الأصلي للبيوت الدائرية في هاتين المنطقتين[13]. عموماً يمكن القول أن البيوت الدائرية ربما تكون قد تطورت عن أساليب متعددة في البناء للمساكن الوقتية للشعوب المتنقلة في عموم الشرق الأدنى منذ أقدم الأزمان. والمباني الدائرية هي عبارة عن مباني ذات مخطط أرضي دائري الشكل، ظهر النوع الأول منها منذ أواخر العصر الحجري الوسيط، وهي عبارة عن مبانٍ صغيرة الحجم بسيطة التركيب تتكون من غرفة واحدة دائرية فيها فتحة صغيرة استخدمت مدخلاً، كما في مواقع زاوي جمة شانيدار [14]. شيد بعضها على أسس حجرية، كما في موقع المريبط ، وأخرى بدون أسس كما في مواقع أبو هريرة، وزاوي جمة شانيدار[15]. بنيت جدرانها من حجارة كلسية كبيرة وأخرى صغيرة ومن الحصى النهري كما في مواقع زاوي جمة شانيدار والمريبط، أو من الطوف واللبن المجفف بالشمس مستطيل الشكل كما في موقع ملفعات في شمال العراق، أو الخشب والقصب على سطح الأرض مباشرة كما في موقع أبو هريرة. في الغالب كانت بقطر من ٢- ٦ م، بعضها قسم من الداخل بجدران داخلية للحصول على مرافق متعددة [16]. استمر ظهور المباني الدائرية في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار(من نحو ٩٠٠٠-٧٦٠٠ ق.م)، وكانت في الغالب غائرة في باطن الأرض لعمق معين يختلف من موقع لآخر، منها بعمق ٢ م، كما في موقع الجرف الأحمر في شمال سوريا، وأخرى بعمق ١,٥م، كما في موقع قرمز درة في شمال العراق، أو بعمق ٦٠ سم، كما في موقع العبر٣ في شمال سوريا [17]. بعض هذه البيوت يتكون من غرفة واحدة، كما في موقع قرمز درة، وأخرى من عدة غرف، كما في مواقع نمريك، والمريبط، والشيخ حسن، والجرف الأحمر والعبر ٣. بني القسم العلوي لهذه المباني من الطوف، كما في نمريك، وقرمز درة، في حين استخدمت أحجار اللايمستون في مباني مواقع شمال سوريا، كما في المريبط، والجرف الأحمر[18]. افتقرت بعض هذه المباني للمداخل، كما في نمريك، وقرمز درة (الشكل : ١)[19]. استخدمت الركائز أو الدعامات الكبيرة في بعض المباني ويبدو أنها لم توظف لرفع السقف وتحمل ثقله فقط، لأن جدران المباني تكفي لهذا الغرض، وتبعاً لذلك يبدو أن هناك استخداماً آخر أو فائدة أخرى للركائز ولسقوف البناء، منها احتمال جعله ملائماً لتحمل أثقال أخرى اضافة لثقل السقف مما يحمل على الافتراض بوجود منفذ فيه يستخدم كمدخل لهذه الأبنية، اضافة لفائدته في مجال الإضاءة والتهوية، علماً بأن جدران المباني كانت خالية من الأبواب والمنافذ كما في نمريك [20].

البيوت السكنية ذات المخطط المستطيل

استمرت تقاليد البناء الدائري في المستوطنات والقرى في هذه المنطقة بشكل خاص والشرق الأدنى بشكل عام لمدة تقرب من ألفي سنة كان إنسان المنطقة ينجز خلالها محاولات ناجحة في التحول من اقتصاد الجمع والالتقاط والصيد (الألف ٩-٨ ق.م) إلى اقتصاد أكثر استقراراً في الإنتاج والتدجين (الألف ٧-٦ ق.م)، ومع تمكنه من هذا بدأت تقاليده في البناء تتغير أيضاً تبعاً لحاجاته الجديدة في الاستقرار الدائم وتعوده على أنماط الاقتصاد الجديد في الزراعة والتدجين فنمت مقاره الأولى البسيطة وصارت أكثر تطوراً

واتساعاً وصار شكل منازله مستطيلاً ومربعاً، كما صار المنزل الواحد يتكون من فناء وغرفتين أو أكثر، وأفرد في هذا المنزل مكاناً لحفظ غلاله (مخزن)، فضلاً عن مكان لإيواء الحيوانات المدجنة وصغارها، وصار للمنزل مطبخاً يضم موقداً وتنوراً للخبز. وأصبحت جدران هذه المنازل أكثر ارتفاعاً وصارت تشييد بالطوف على أسس حجرية ثم استعيض عن الطوف باللبن المعمول بقالب بمرور الزمن، وربما يكون لقوالب اللبن هذه الأثر الكبير في تطور شكل البيت [21].

إن تبني الاقتصاد الزراعي على نحو واسع في أواخر العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار(A) ومطلع العصر الحجري الحديث ما قبل (B) في نحو ٧٦٠٠ ق.م، انعكس في جانب العمارة من خلال التحول من الشكل الدائري إلى الشكل المستقيم (المستطيل والمربع)، وكان هذا التحول أحد المؤشرات الواضحة عن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي حصلت في هذه المرحلة [22]. لقد أدت حاجة الإنسان إلى مرافق جديدة دوراً مهماً في تطور شكل تصميم البيت، إذ أن البيت في أول أمره كان دائرياً يتألف من غرفة أو غرفتين، وربما كان دورها مقتصراً على النوم وتفي بغرض حماية النفس من خطر الحيوانات المفترسة وضرر الأمطار والرياح والثلوج خصوصاً في الليل. فلما تكاثر عدد أفراد الأسرة وازدادت أدوات الإنسان ومحاصيله الزراعية احتاج إلى مرافق أخرى ليس للنوم فقط بل للطبخ ولخزن حبوبه ولحفظ ماشيته. وأصبح البيت بمرور الزمن يتألف من عدة غرف وأصبح الإنسان يحسن ترتيب هذه الغرف ويجمعها في وحدة سكنية متناسقة[23]. فظهرت في أواخر العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (A) العمارة المستقيمة (المستطيلة والمربعة)، التي تتكون من عدة غرف قد تكون مستطيلة أو مربعة أو من الشكلين معاً وتنتظم عادة حول باحة داخلية وفي البعض منها جدران ثانوية تقسمها من الداخل إلى عدة أجزاء. أقدم هذه المباني ظهرت في الطبقة الثالثة B في موقع المريبط في شمال سوريا، وتعد أول الأشكال المعمارية المستقيمة، وعد هذا النوع من البناء بمثابة ثورة في التطور المعماري، وهو النموذج الأقدم في الشرق الأدنى والعالم (الشكل:٢)[24]. ثم سادت العمارة المستطيلة مدة طويلة وانتشرت في أغلب مواقع هذه المنطقة ومناطق أخرى من الشرق الأدنى، مع وجود اختلافات في التفاصيل المعمارية نتجت عن الخصوصية المحلية لكل منطقة. فقد كان شكل تصميم المباني يتباين من منطقة لأخرى من ناحية نوعية مواد البناء وطريقة البناء ، إذ لا توجد مخططات أرضية متشابهة مئة في المائة في موقعين أو أكثر ، لكن التشابه موجود في الموقع الواحد بصورة واضحة من جميع النواحي تقريباً، خاصة بعد أن تعلم الإنسان بناء البيوت بطريقة متقنة كما في موقع جايونو في جنوب شرق تركيا وموقع جرمو في شمال العراق وموقع حالولة في شمال سوريا[25]. وفي بعض الأحيان هناك اختلاف في الوظيفة، فأول المباني المستطيلة التي ظهرت في وادي الفرات في شمال سوريا كانت قد قسمت إلى وحدات صغيرة بحجم ١م مربع ، لذا يمكن أن تكون قد استخدمت في هذه المرحلة المبكرة للخزن وليس للسكن، كما في موقع الشيخ حسن(الشكل : ٣)[26]. غالباً ما كانت البيوت المستقيمة معقدة التركيب بمخطط متعدد الخلايا، إذ ترتبط الغرف أحداها بالأخرى مباشرة بواسطة شبكة داخلية من الممرات ، بمعنى أن هذه الممرات يؤدي كل منها للمرور لجزء مختلف من المبنى دون مغادرته كما في أبو هريرة ٢ وبقرص وصبي أبيض في شمال سوريا. وكانت هذه البيوت المستطيلة

المركبة بمساحة كبيرة وبعدد غرف يتراوح بين ١٠-١٥ وربما أكثر، كما في مواقع صبي أبيض، وتل بويض ٢ في شمال سوريا(الشكل :٤)[27]. بنيت أغلب هذه البيوت من الطين (الطوف) أو من اللبن أو الحجر، واستخدم الطلاء الطيني أو الكلسي للأرضيات والجدران في العديد من المواقع، وزودت الجدران بالدعامات من الداخل ، كما في موقع جايونو في جنوب شرق تركيا وموقع بقرص في شمال سوريا [28]. عملياً يبدو أن البيت الدائري لا يتطور بالسرعة التي يتطور بها البيت المستطيل أو المربع الشكل أو البيت المتعدد الغرف، لأن الصعوبة في بناء عدة غرف دائرية الشكل لبيت واحد أكبر بكثير من بناء عدة غرف مستطيلة أو مربعة لبيت واحد أيضاً،هذا من الناحية الإنشائية، أما من الناحية الوظيفية فإن ازدياد حاجة الإنسان لغرف أخرى تجبره لبناء ملحق لبيته الدائري لأداء وظائف جديدة، فيصعب من ثم بناء عدة غرف اضافية ملتصقة بالغرفة الأولى وتؤدي وظائفها كما تؤديها الغرف المستطيلة أو المربعة الشكل. لهذا يفضل الإنسان في هذه الحالة الشكل الذي يكون أكثر مرونة (الشكل المستطيل)، آخذاً في الحسبان الناحيتين المعمارية والوظيفية[29]. إن البيت المستقيم قابل لكل أنواع التوسع من خلال إضافة المزيد من الحجرات الجديدة إليه لغرض استيعاب الأعداد المتزايدة لأفراد العائلة، أي أنه يفسح المجال لأنماط جديدة من السكن الجماعي أو المشترك. فقد ضم أحد البيوت في موقع جرمو في شمال العراق سبع غرف صغيرة مستطيلة الشكل ومنتظمة ومبنية بجدران طويلة ومستقيمة، يحتمل أنها قد بنيت على مراحل. يبدو أنه تمت الاستفادة من مرونة الشكل المستقيم في اضافة ملحقات بنائية في مراحل لاحقة. إذ ربما يكون هذا البيت قد بني في البداية من ست غرف ثم ألحقت بها الغرفة رقم ٧، لأنها تقع خلف بقية الغرف. إن شكل الغرف الجديدة ليس من الضروري أن يكون مشابهاً للغرف القديمة، فمثلاً الغرف التي تستخدم للخزن تكون في معظم الأحيان أصغر من الغرف المخصصة للنوم أو الطبخ ، عموماً أن وظيفة هذه الغرف هي التي ساعدت وتساعد الإنسان على تحديد شكل وحجم الغرف تبعاً لرغبته (الشكل :٥) [30]. يبدو أن البيت المستقيم يرتبط بنوع جديد من الأسر التي عاشت معاً في عائلات كبيرة ضمت الأبوين وأولادهما وأحفادهما. ولبعض هذه البيوت مرافق صغيرة (مخازن) ومواقد نار وتنانير وأحواض تظهر الاستقلالية الاقتصادية لهذه الوحدات السكنية ضمن مجتمع المستوطن. إن الاستثمار في البيت المستطيل، بغض النظر عن حجمه، أكبر من نظيره الدائري، إذ يتألف البيت الدائري من وحدتين، جدار مستمر وسقف، بينما يحوي البيت المستطيل على الأقل على خمس وحدات، أربعة جدران منفصلة وسقف. إن هذا التحول يؤشر زيادة في حجم البيت وتركيبه. إذ يشير تعدد الغرف في البيت الواحد إلى تعدد الأغراض أو الوظائف التي استخدمت من أجلها. فقد أصبحت مساحة هذه البيوت أكثر من ١٥-٢٠ متر مربع ، وجد في داخلها مخزن للحبوب، وبنيت غرف اضافية مقابل الجدار الخارجي من المبني لعائلات البيت الإضافية [31]. وفرت الجدران المستقيمة عملياً إمكانية لصق البناء الجديد إليها فتعددت غرف البيت الواحد. عموماً تكبر الوحدة السكنية بإضافة غرف أخرى يلصق بعض جدرانها بجدران الغرف القديمة دون أن يكون لإحدى هذه الغرف الجديدة ميزة خاصة بذاتها، ويسير بناء الوحدة السكنية جنباً إلى جنب مع نمو العائلة التي تسكنها. أن البيت المستطيل تسمح جوانبه في عمل غرف اضافية، بينما البيوت الدائرية ومنذ البداية حددت منطقة العيش فيها ، لذا فإن اضافة ملحق أو توسعة فيها يبدو أمر فيه صعوبة كما ذكرنا.

أسباب التحول من البيت الدائري إلى البيت المستطيل

افترض بعض الباحثين أن المخطط الدائري يرتبط بالمجتمعات الرعوية أو شبه الرعوية بينما المخطط المستطيل يرتبط بفلاحي القرى كاملة الاستقرار. لكن هذه الفرضية مشكوك في قيمته التاريخية في منطقة أعالي بلاد الرافدين، لأن القرى الزراعية الكبيرة في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار(A) حافظت جميعها على تقاليد البناء الدائري كما في مواقع شمال شرق سوريا المريبط والشيخ حسن والجرف الأحمر. مع إمكانية الافتراض أن احتفاظهم بالمخطط الدائري ربما يكون ناتجاً من كون البيوت المستطيلة لم تظهر إلا في أواخر هذا العصر، فقد كان انتشارها الأوسع في العصر اللاحق، أي العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار(B). وهو العصر الذي يعتقد أن المجموعات الرعوية وشبه الرعوية قد عادت فيه إلى حياة الاستقرار [32]. وهناك من الباحثين من يرى أن هذا التحول ربما يقترن مع حالة الغنى وزيادة الثروات الشخصية بعد تبني حياة الاستقرار والزراعة والتدجين، أو ربما يكون هذا التحول ببساطة هو تبني شكل معماري جديد لمعالجة محدودية أو ضيق الأماكن في المستوطن كما في قرمز درة في شمال العراق ولا يتزامن مع تغيرات اجتماعية. ويفترض باحثون آخرون بأن هذا التحول يؤشر تحولاً كبيراً في تنظيم الأسرة وعلاقات الملكية. فالبيت الدائري هو سكن لأسرة صغيرة من رجل وزوجته، إذ أنه مقيد بمساحة سكنية محدودة وغير قابلة للتوسع (الحفرة المستديرة)، بينما البيت المستطيل هو مسكن لأسرة من ثلاثة إلى أربعة أشخاص، يمكن أن يتسع من خلال اضافة المزيد من الحجرات الجديدة إليه لغرض استيعاب الأعداد المتزايدة لأفراد العائلة، أي أنه يفسح المجال لأنماط جديدة من السكن الجماعي أو المشترك. أن التغيير الأكثر أهمية في التنظيم الاجتماعي على مستوى الأسرة هو في تحويل مباني الخزن من مكان خارجي إلى داخل البيت، ويبدو أن هذا الأمر يقترن بالتغيير في العمارة المنزلية. وهو يشير إلى تغيير أساسي في التنظيم الاجتماعي نحو الفردية والملكية الخاصة [33]. ويرى آخرون أن هذا التحول من البيت ذي الشكل الدائري إلى البيت ذي الشكل المستطيل يعود إلى انقطاع العمل وفق التقاليد الثقافية داخل منطقة واحدة، لكن مثل هذا الانقطاع لا أثر له في منطقة أعالي الرافدين، فقد تابعنا كيف أن البيوت الدائرية الشكل والبيوت المتعددة الغرف والبيوت المستطيلة والمربعة الشكل كانت قد ظهرت جنباً إلى جنب في الكثير من مواقع هذه المنطقة، خاصة في الطبقات السفلى من هذه المواقع (أم الدباغية طبقة ٤، حسونة طبقة١، يارم تبة١ طبقات ٧-٨). لكن يلاحظ في الطبقات الأحدث من الطبقات السابقة اختفاء البيت ذي المخطط الدائري تقريباً. ربما يفهم من هذا أن البيوت المستطيلة والمربعة الشكل والبيوت المتعددة الغرف قد تطورت من البيوت الدائرية بدون أن يكون هناك انقطاع في التقاليد الثقافية. وإن توقف ظهور المباني الدائرية نسبياً دليل على استغناء الإنسان عن هذا النوع من المباني لانتفاء الحاجة إليها، أو يكون سبب اهمال الإنسان لها يعود إلى عدم ملائمتها لتحقيق الأغراض الجديدة التي ظهرت نتيجة تطور حياة الإنسان، فأصبحت البيوت المستقيمة والمتعددة الغرف ذات المساحة الأكبر هي من يلبي الاحتياجات الجديدة التي ظهرت في حياة السكان في المجتمع الزراعي [34]. عموماً يبدو أن هناك عدة عوامل ساعدت على التحول من المخطط الدائري إلى المخطط المستقيم، أولها بساطة التقنية، إذ إن بناء البيت المستطيل يفترض أن الناس عرفوا كيف يعملوا مخطط مستطيل الجدران قائم

بذاته، وأيضاً كيف يربطوا جدارين معاً في زوايا مستقيمة. يبدو أن هذه المعرفة نتجت من تقنية التقسيم الداخلي للمباني الدائرية الذي ظهرت منذ أقدم مراحل هذا العصر كما في موقع المريبط (الشكل :٦) [35]. العامل الثاني هو أن مبدأ التقسيم الداخلي لمساحة المعيشة ربما يرتبط بالضغط الاجتماعي وزيادة عدد السكان. مع ملاحظة أن التقسيم الداخلي للوحدة السكنية كان قد ظهر أيضاً في الوحدات السكنية ذات المخطط الدائري كما سبق أن أشرنا. أن البيوت المستطيلة تعود لعوائل كبيرة وليس لأفراد، ربما لرجل وزوجته وأولادهم غير المتزوجين. إن المخطط المستطيل لهذه البيوت يجعل من السهولة اضافة وإسقاط الغرف فعند توسع العائلة النواة (زوج وزوجة) يمكن اضافة غرف أو ازالة غرف بسهولة. يبدو أن مبدأ تعدد الغرف لا يرتبط فقط بالمخطط المستطيل، وإنما يمكن أن يكون مرتبط بعدم ملائمة الشكل الدائري عندما يتعلق الأمر بزيادة عدد هذه الغرف [36]. والعامل الثالث والأخير لا ينفصل عن العاملين السابقين، وهو أن الأشكال الهندسية في ذهن الإنسان هي الأكثر رسوخاً، وهذه حقيقة لا يمكن إغفالها حتى ولو وإن كانت هناك محددات أخرى، تقنية وبيئية واجتماعية ذات صلة بالموضوع . إن التحول من الشكل الدائري للشكل المستطيل في مخطط المباني ظهر في العديد من مناطق الشرق الأدنى، مع أسبقية لمنطقة منطقة وادي الفرات (المريبط ٣، الشيخ حسن) وجنوب شرق تركيا(جايونو، نيفالي تشوري)، ولوحظ هذا التحول أيضاً في مواقع نمريك وجرمو والمغزلية في شمال العراق. قدمت هذه المواقع عمارة مستقيمة (مستطيلة ومربعة)، بتصاميم مختلفة في مخططها الأرضي، الذي يختلف باختلاف الشكل العام للبيت كما ذكرنا. عموماً سارت عملية تطور البيوت المستقيمة بصورة تدريجية، وهي - كما يظهر من المخلفات المعمارية - تختلف في سرعتها من موقع إلى آخر بالرغم من أن مخلفات بعض المواقع تعود لعصر واحد [37]. يظهر من البقايا الطبقات السفلى في موقع حسونة مثلاً التطور التدريجي لشكل تصميم البيت، فالطبقات الأولى والثانية تبدو العشوائية هي المسيطرة على مخططات بيوتهما غير المكتملة، فالغرف غير منتظمة ومساحتها غير متساوية وجدرانها لا تلتقي بزوايا قائمة إلا نادراً. ومع توالي طبقات البناء يلاحظ أن طريقة بناء البيوت تختلف بين طبقة وأخرى. وتصبح المباني ذات زوايا قائمة والجدران مستقيمة في الطبقات الأحدث وأن كانت تختلف في سمكها كما في الطبقتين ٣ ،٤. يظهر من متابعة الجدران في الطبقات الخمس السفلى أنها كانت تتحسن في تناسقها وتنظيمها بمرور الوقت. أن البيوت في هذه الطبقات شيدت في البداية بطريقة عشوائية ثم تطور تصميمها فأصبحت في الطبقات الأخيرة شبه منتظمة [38]. كما يمكن تأشير نفس الحالة في موقع يارم تبة ١، إذ تظهر طبقات الموقع تطور تصميم البيت من شكل النواة البدائي إلى الاضافات المتأخرة كما في الطبقة الخامسة في بيت رقم ٤ المكون من قسمين، وهو بقياس ٧ في ٦ م، القسم الشمالي يتألف من صفين من الغرف، في كل صف ثلاث غرف، والجنوبي تشغله ساحة يظهر أنها استغلت فيما بعد لبناء أحد الغرف. يظهر هذا البيت مخططاً منتظماً تقريباً وهو مثال جيد للتنظيم والابتعاد عن العشوائية [39].

الخاتمة

أن تبني الاقتصاد الزراعي على نحو واسع في منتصف العصر الحجري الحديث انعكس في جانب العمارة من خلال التحول من عمارة البيت ذي المخطط الدائري إلى بناء بيوت سكنية بمخطط مستقيم (مستطيل ومربع). لقد أشر هذا التحول إلى وجود تغييرات اجتماعية واقتصادية، إذ أن البيوت الدائرية كانت مقيد بمساحة سكنية محدودة وغير قابلة للتوسع (الحفرة المستديرة)، في أن البيوت ذات الجدران المستقيمة تمتلك قابل لكل أنواع

التوسع من خلال اضافة المزيد من الحجرات الجديدة إليها لغرض استيعاب الأعداد المتزايدة لأفراد العائلة، أي أن البيت ذو المخطط المستطيل يفسح المجال لأنماط جديدة من السكن الجماعي أو المشترك. لهذا التحول أسباب عدة منها تبني الناس لشكل معماري جديد ليتمكنوا من معالجة محدودية أو ضيق الأماكن في المستوطن، وكذلك لحل قضية توسع الأسرة، فهو يفسح المجال لأنماط جديدة من السكن الجماعي أو المشترك للأسر الكبيرة التي تعمل معاً في زراعة وحرث الأرض. وربما يكون لحياة الاستقرار التي رافقت ظهور المجتمعات الزراعية وما حصل من وجود فائض في الإنتاج وزيادة في الثروات وحالة الغنى التي أصبحت فيها أحد أسباب هذا التحول. وهو بهذا يشير إلى تغيير أساسي في التنظيم الاجتماعي نحو الفردية والملكية الخاص. أو أنه نوع من تبني أسلوب معماري جديد يلبي احتياجات الناس ويتوافق مع الحالة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة. هناك عدة عوامل ساعدت على هذا التحول ، منها بساطة التقنية ، إذ يسهل على الناس تركيب جدارين معاً في زوايا مستقيمة، إي أنهم عرفوا كيف يعملوا مخطط مستطيل الجدران قائم بذاته. فضلاً عن التقسيم الداخلي لمساحة المعيشة في البيت الواحد الذي يرتبط بالضغط الاجتماعي وزيادة عدد السكان، كذلك فأن الأشكال الهندسية وخاصة المستقيمة تكون أكثر رسوخاً ذهن الإنسان كما أشرنا.

نخلص إلى أن العمارة المستطيلة ذات الغرف المتعددة اقترنت بالأسرة الكبيرة التي عاشت في القرى الزراعية، وكانت أكثر ملائمة لأداء الوظائف المتعددة لعائلات الفلاحين من نظيرتها الدائرية.

Abstract

Transition in house plans from the circular to the rectangle in Neolithic in the Upper Mesopotamia.

By : jumaa hhariz

Architecture is one of the distinctive features of Upper Mesopotamia, in which many forms of house design emerged which identified by the human need and the quality of the raw materials available within its environment. In this area, older homes were appeared, and what could be the beginning of the house was made in whole of the ancient Near East. This architecture consisted of primitive forms in its design and technique of construction, mostly, they consisting of a circular chamber with a small opening representing the entrance. With the advent of the Neolithic period within the ninth millennium BC, Architecture evolved somewhat from its predecessors, although it maintained its circular or oval plan, and residential house at this period became more spacious and organized, and was divided from the inside. Then, in the mid of this period, a great architectural development took place, with the transition to straight construction, Rectangular and square houses appeared at existing angles .

الهوامش

(1) - Matthews, R.(٢٠٠٠). The Early Prehistory of Mesopotamia. ٥٠٠,٠٠٠ to ٤,٥٠٠ B.C. Subartu ,Vol. ٥, Brepols, Turnhout, Belgium.p.١١٥/ Matthews, R. (٢٠٠٣).The Archaeology of Mesopotamia , Theories and approaches. London .p.٦٩.

(2) - كوفان،جاك. (١٩٨٤).الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألف التاسع والثامن ق.م. دمشق ، ص ٢٤٤.

(3)- Cauvin, J.(٢٠٠٣). The Birth of the Gods and the Origins of Agriculture. Cambridge University press,UK.p.٦٢-٦٦/ Zeder,M.A.(٢٠٠٩).The Neolithic Macro-(R)evolution: Macroevolutionary Theory and the Study of Culture Change. Journal of Archaeological Research, Vol. ١٧, No.١ ,p. ١٩.

(4) -Watkins, T.(٢٠١٠). Changing People ,changing Environments: How Hunters-Gatherers became Communities that changed the World. In ,Finlayson B, Warren G(ed).Landscapes in Transition.U.S.A.p.٣١٩/ Kozlowski, S.K.(١٩٨٩-١٩٩٠). A Preliminary Report on the Third season/١٩٨٧ of Polish Excavations at Nemrik /Saddam Dam salvage project. Sumer, Vol. ٤٦, №.١-٢.p.٢٧.

(5) - أوتس، ديفيد.(١٩٨٨). نشوء الحضارة. ترجمة لطفي الخوري، بغداد، ص ٣٧/ ساكز، هاري.(٢٠٠٨). عظمة آشور. ترجمة خالد أسعد ، دمشق، ص ١٥.

(6) - قدسية، محمد صبري.(٢٠١٦). عمارة البيوت الدائرية في مطلع العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى . بغداد ، ص٣٢.

(7) - Jacuetta, H and Woolley , L. (١٩٦٣).Prehistory and the beginning of Civilization. London.p. ٥٢٥.

(8) -Aurenche, O.(١٩٨١). La Maison orientale. Paris , p. ١٨٥.

(9) -Flannery, K.V.(٢٠٠٢).The Origins of the Village Revisited: From Nuclear to extended households.American Antiquity ,Vol.٦٧,No.٣.p.٤٢٧.

(10) - Braidwood, R.(١٩٥٨). Near Eastern prehistory. Science New Series,Vol.١٢٧, N.٣٣١٢, p.١٤١٩./ Braidwood, R. (١٩٦٠). Excavations in Iraq Kurdistan .Chicago. p.٣٦,٤٠-٥٠.

(11) - Merpert, N and Munchaev, R.(١٩٧٣). Early Agricultural Settlements in the Sinjar Plain, Northern Iraq. Iraq, Vol. ٣٥, No. ٢.p.١٠٠.
(12)- Mehart , J.(١٩٧٠). The Earliest Settlements in the western Asia from the ninth to the end fifth millennium B.C. CD,Vol.١,PT.١,p.٢٧٦-٢٧٨.
(13) - سليمان، موفق جرجيس.(١٩٧٦). عمارة البيت العراقي في عصور ما قبل التأريخ. بغداد،، ص ٥١.
(14) - Solecki, R. S.(١٩٥٧). The ١٩٥٦–١٩٥٧a season at Shanidar, Iraq : a preliminary statement. Quaternaria, Vol, ٤. P. ٢.
(15) - Solecki, R. S.(١٩٦١). Zawi Chemi Shanidar, a Post-pleistocene village site in Northern Iraq .Report of the ٦th International Congress on Quaternary. Warsaw, Vol. ٤ : Archaeological and anthropological section. P. ٤٠٥–٤١٢.
(16)- Loon, M.V.(١٩٦٨). The Oriental Institute excavations at Mureybit, Syria ١: a preliminary Report. on the ١٩٦٥ Campaign, pt ١. : Architecture and general finds. Journal of Near Eastern Studies. Vol. ٢٧, № ٤. P. ٢٦٨.
(17)- Yartha, T.(٢٠٠٥). Les batiments communautaires de Tell'Abr ٣ (PPNA, Syrie .Neo-Lithics. № ١. – P.٥–٧/-١٧ ص ، دمشق ق.م. الجرف الأحمر قرية من الألف العاشر .(٢٠٠٥) جاموس، بسام .١٩.
(18) - Stordeur, D.(١٩٩٦). Jerf el- Ahmar : a new Mureybetian site (PPNA) on the Middle Euphrates. Neo-Lithics.№ ٢. P. ١–٢/ . تقرير أولي عن حفريات جديدة في تل المريبط .(١٩٧٢) كوفان، جاك مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ، دمشق. ج ٢٢ ، ع ٢ ، ص ١٩٣-١٩٥.
(19)- Watkins, T.(١٩٨٧). Qermez Dere: the excavations of an Aceramic Neolithic settlement near Tell Afar North Iraq : interim rep. Edinburgh : Edinburgh Univ. Department of Archaeology. p. ١٣٦.
(20) - Kozlowski, S. K.(١٩٨٩-١٩٩٠). Fourth report on the excavation of the Pre-pottery Neolithic site Nemrik ٩.Sumer. Vol.٤٦, № ١/٢.P.٢٦–٣٠.
(21) - Merpert, N and Munchaev,R. (١٩٧٣). Op.cit, p.١٠١.
(22) - Cauvin, J.(٢٠٠٣).Op.cit.p.١٢٨-١٢٩
(23) - سليمان، موفق جرجيس.(١٩٧٦).المصدر السابق الذكر ، ص ٤٤.
(24) - Cauvin, J.(٢٠٠٣).Op.cit.p.٤١.
(25)- Braidwood, R .(١٩٦٠).Op.cit, p.٤٢-٤٣/ Ozdogan, A.(١٩٨٩). Çayönü. A conspectus of recent work. Paléorient . Vol. ١٥, № ١. P. ٦٨–٦٩/ Molist, M .(٢٠١١). Timing the Neolithic transition: the application of fluoride dating at Tell Halula, Syria .Journal of Archaeological Science. Vol. ٣٨, P. ١٤٩٧.
(26)- Stordeur, D.(١٩٩٩).Reprise des fouilles prehistoriques a Cheikh Hassan:Une camragne de reconnaissance. Journal Les Annales Archéologiques Arabes Syriennes. Vol. ٤٣.P.٥٩-٦١/Cauvin,J.(١٩٨٠).Mureybet et Cheikh Hassan. in , Margueron ,J.(ed). Le Moyen Euphrate,zone de contacts et d'echanges.Paris,p.٢١-٢٣.
(27) -Aurenche, O.(١٩٨٥-١٩٨٦). Mesopotamian architecture from the ٧th to the ٤th millenia .Sumer. № ١/٢. P.٧٤.
(28) - Ozdogan, A. (١٩٩٩).The Neolithic in Turkey, the cradle of civilization. In, Ozdogan,M and Basgelen ,N (ed). Istanbul, ١٩٩٩. P. ٣٥٦-٣٨/ Molist, M.(٢٠١١). The changing Neolithic household: Household autonomy and social segmentation,Tell Halula, Syria. Journal of Anthropological Archaeology. Vol. ٣٠. P. ٥٠٢–٥٠٥.
(29)- Schmidt ,J.(١٩٦٣). Die Agglutinierende Bauweise in Zweistromland und in Syrian. Berlin , p. ٤-٨.
(30) - Braidwood , R(١٩٥٢). From Cave to Village .Iraq Petroleum,Vol.١,N.٩,١٩٥٢.p.٧.
(31)- McMahon, A.(٢٠٠٥). From sedentism to state , ١٠,٠٠٠ – ٣,٠٠٠ BCE. in . A Companion to the Ancient Near East. In, Snell, D.C (ed) Blackwell,USA .p.٦٣.

(32) - Cauvin, J. (٢٠٠٣). OP.cit,p.١٢٨

(33)- Watkins, T.(١٩٩٠). The Origins of house and home. World Arcgaeology. Vol.٢١.p, ٣٤٥/ Saidel , B.A.(١٩٩٣). Round house or Square? Architectural form and Socio-Economic Organization in PPNB. Journal of Mediterranean Archaeology , Vol.٦,N.١.p.٩٥./ Flannery , K. V.(١٩٧٢). The Origin of Village as a Settlement type in Mesoamerica and Near East. London,p.٣٩-٤٠./ Bar-Yosef, O.(٢٠٠١). From sedentary foragers to village hierarchies: the emergence of social institutions. In, Runciman, G. (ed), The Origin of Human Social Institutions: Proceedings of the British Academy, vol. ١١٠. Oxford University Press, Oxford, pp. ١–٣٨.p.٢١/ Molist, M.(٢٠١١). The changing Neolithic household: Household autonomy and social segmentation, Tell Halula,Syria.Journal of Anthropological Archaeology,Vol.٣٠,p.٥٠٤-٥٠٥

(34) - Jacuetta, H and Woolley , L.(١٩٦٣),Op.cit,p.٢٨٦.

(35) -Aurenche, O.(١٩٨١). Op.cit,p.٨٧/ Stordeur, D.(١٩٩٦).Op.cit,P.١–٢.

(36) - Dunand,M.(١٩٧٣). L′Architecture , les tombes , le materiel domestique des origins neolitthiques a L′avenement urban. Paris,p ٣٣-٣٥/ Aurenche, O.(١٩٨١). Op.cit,p.١٩٢.

(37) - Cauvin, J. (٢٠٠٣).p.١٣٠.

(38) - Safar, F. (١٩٤٥). Tell Hassuna excavations by the Iraq Government Directorate General of Antiquities in ١٩٤٣ and ١٩٤٤. Journal of Near Eastern Studies.Vol. ٤, № ٤. P. ٢٦٧, ٢٧٢-٢٧٣.

(39) - Merpert, N and Munchaev,R(١٩٧٣).Op.cit , p.١٠١.

الخرائط والأشكال

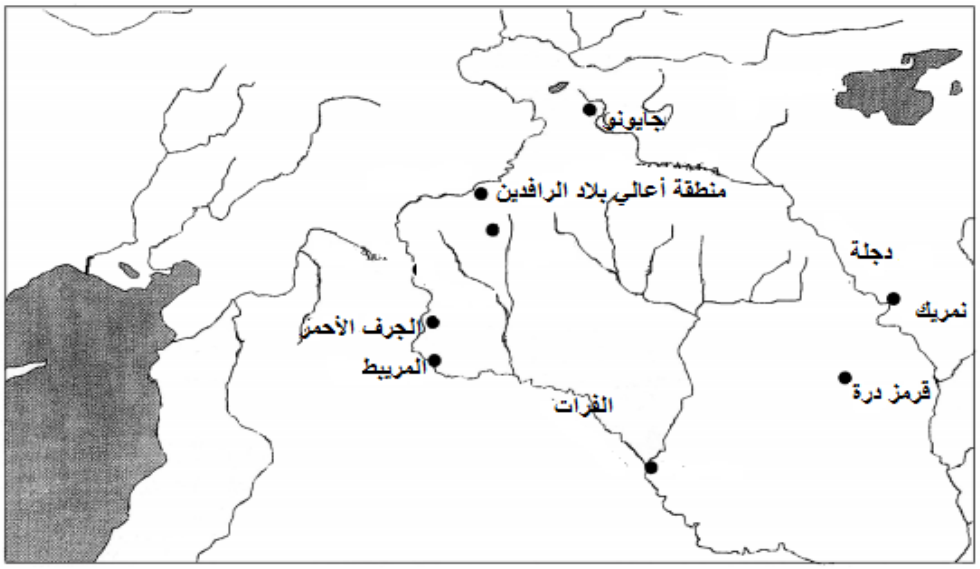

الخارطة : ١ تظهر منطقة أعالي بلاد الرافدين وبعض المواقع الواردة في النص

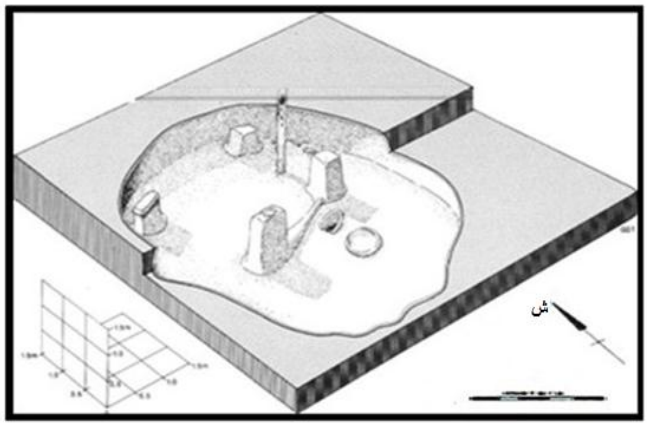

الشكل : ١ بيت دائري من موقع قرمز درة في شمال العراق

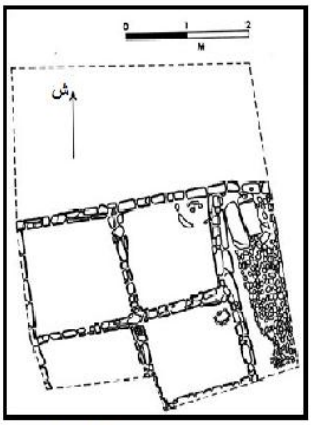

الشكل : ٢ بيت بمخطط مستطيل من موقع المريبط في شمال سوريا

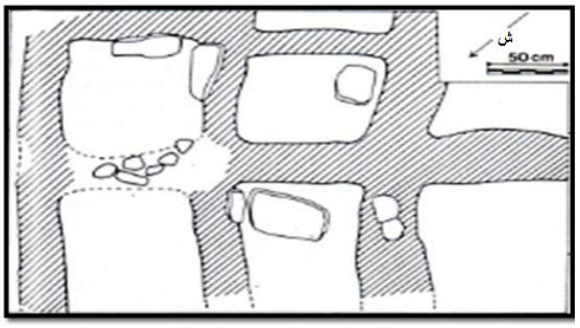

الشكل : ٣ بيت بمخطط مستطيل من موقع الجرف الأحمر في شمال سوريا

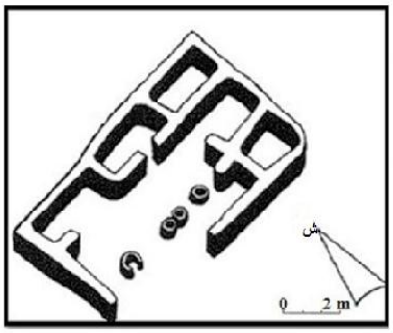

الشكل : ٤ بيت بمخطط مستطيل من موقع تل بويض ٢ في شمال سوريا

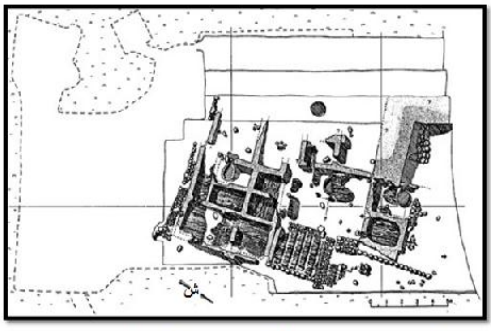

الشكل : ٥ بيت بمخطط مستطيل من موقع جرمو في شمال العراق

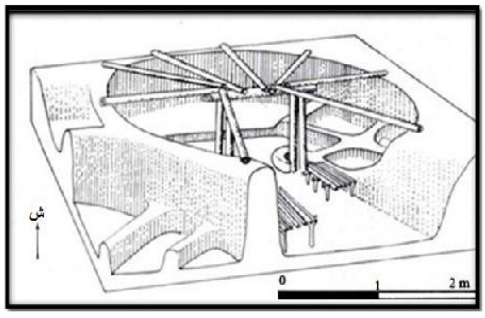

الشكل : ٦ بيت داري من المريبط في شمال سوريا